صورة المرأة الجزائرية في نصوص الرحلة الأوروبية –قراءة في نماذج-

The image of the Algerian woman in the European journey texts – a reading with models

د. شفيق بوطرفة*

جامعة عباس لغرور -خنشلة-

chafik.boutarfa@univ-khenchela.dz

تاريخ الارسال 27 – 01- 2022	تاريخ التقييم: 13- 05- 2022	تاريخ القبول: 15- 06- 2022

الملخص:

ساهمت الكتابات الاستشراقية في تنميط صورة المرأة الشرقية في نظر الأوروبيين، فاندست في الذهن الجمعي الأوروبي لعدة قرون؛ ونخص بالذكر المستشرقين الذين تأثروا بقصص "**ألف ليلة وليلة**" التي جسدت الشرق في صورة عالم سحري وعجائبي، وبالتالي أثارت المرأة الشرقية فضول الرحالة الأوروبيين، حيث سافر الكثير منهم نحو الشرق لاكتشاف المرأة الشرقية وخباياها، ومن ثم جاءت نصوصهم الرحلية مثقلة بكم هائل من الصور التي مثلت المرأة الشرقية بمساوئها ومحاسنها. لذلك تهدف هذه الدراسة إلى تتبع هذه الصور في نماذج من النص الرحلي الأوروبي وفق رؤية مقارنة.

الكلمات المفتاحية: صورة المرأة؛ نص الرحلة الأوروبي؛ قراءة مقارنة.

Abstract :

The oriental writings contributed in restricting the image of the Eastern woman for the Europeans. So, they were involved in their social feedback for many centries; and « Arabian Nights » that actualised the Est as a wonderful and magical world. Therefore, the Eastern woman stimulated the curiosity of the European travelers, in which many of them traveled towards the East to explore the Eastern woman and her hiddens. Then, their journey texts came with a heavy amount of these images that represented the eastern woman with both bad and good sides. Hence this study aims at tracing these images with models from the European journey text through a comparative perspective.

Keywords :The woman's image, The European journey text, comparative reading.

*المؤلف المراسل:

توطئة

تعد الصورولوجيا (imagologie) من أبرز مباحث الأدب المقارن التي من شأنها أن تتيح لنا فرصة لاكتشاف صورة الآخر في مختلف الأجناس الأدبية، إذ يعكف الباحثون في ميدان الدراسات الصورية على استنطاق مختلف الدلالات والحمولات الثقافية المتوارية خلف أنماط هذه الصور، وأشكالها عبر مصادر عديدة أهمها أدب الرحلة الذي يمكن وسمه بثمرة المشاهدات والأحداث التي صادفها الرحالة في البلدان التي زارها، حيث سمح تواجد الرحالة بمختلف البلدان بالاحتكاك مع شعوبها والتعرف على واقعها الثقافي والاجتماعي والديني عن قرب، ولهذا يمكن عَدُّ أدب الرحلة من أبرز وسائط تلقي صورة الآخر، بل يمكن عده التربة الخصبة لعلم الصورولوجيا.

مهّد أدب الرحلة –باعتباره أحد أهم الأجناس الأدبية- لولادة الصورولوجيا، فالرحلات أهم منبع لاستلهام الصورة، إذ لا تخلو رحلة من تصور حول ماهية الآخر[1]، فللمهاجرين والرحالة من الكتاب «فضل كبير في تكوين هذه الأفكار. فهم الذين ينقلون إلى أممهم، ويصفون في أدبهم صور ما شاهدوا في البلاد الأخرى.»[2] فانتقال الرحالة إلى بلدان خارج أوطانهم مكنهم من بيان موقفهم من البلاد التي رأوها، ومن هنا أصبحت الحاجة ملحة إلى تقصي صورة الآخر في نصوصهم، ومن هذا المنطلق تسعى هذه الدراسة للإجابة عن بعض التساؤلات والتصورات المتعلقة بتلك الرحلات التي قام بها الكثير من الرحالة الأوروبيين إلى الجزائر-نظرا للمكانة التاريخية والجغرافية للجزائر- ورصد صورة المرأة الجزائرية المترنحة بين الواقع والخيال، وما تحويه هذه الصور من معلومات عديدة عن الجزائري. فضلا عن ذلك، فدراسة الصورة «إنما تدل على وعي للذات والعالم، كما تسهم في تعزيز التفاهم بين الشعوب، وتساعد على نشر لواء الإنسانية.»[3] فالذات لا تعي ذاتها إلا بوعيها بالآخر الذي يعكس جزءا من سماتها، وكينونتها وتطلعاتها واهتماماتها، وهذا يحتم على الأنا (العربية أو الغربية) التجند قصد التقرب من الآخر إما بالسفر إليه أو قراءة وترجمة ما يكتبه أو من خلال التعرف على ثقافته، وفكره ومختلف خباياه ومميزاته.

وهذا ما يجعلنا أمام مساءلات نقدية تطرح نفسها كالآتي:

- إلى أي مدى ساهمت الكتابات الرحلية في تجسيد صورة الآخر؟
- كيف تشكلت صورة المرأة الجزائرية في النص الرحلي الأوروبي؟

1. صورة المرأة الجزائرية بين الجمال والقبح

تتجسد صورة المرأة الجزائرية في النص الرحلي للأديب الفرنسي **"تيوفيل غوتييه" (Théophile Gautier)** في صورة المرأة الجميلة والفاتنة ويظهر ذلك جليا فيما أظهره من إعجابٍ وافتتانٍ بجمال المرأة القسنطينية، -التي رآها في حفل العيساوة المُقام بسيرتا- حيث يصف النساء اللواتي وجدهن في حفل العيساوة بالجميلات قائلا: «في الجهة المقابلة على الطريقة الشرقية أربع أو خمس نساء في مقتبل العمر يغطين رؤوسهن بتلك المناديل الحريرية ذات الألوان الصارخة... أما جفونهن المسودة بالكحل، والأهداب المصبوغة التي تصل عند منبت الأنف، فإنها تعطي لجمالهن طابعا غريبا لا يخلو من جاذبية.»[4] لا يخرج تصوير الرحالة للمرأة الجزائرية عم جاءت به الكتابات الغربية المعجبة بالمرأة الشرقية والتي كثيرا ما جسدتها في صورة الأنثى الساحرة الجذابة. وهي صورة تُعبّر عن انتمائها الشرقي بكلّ خصوصياته.

لم يكتف **"تيوفيل غوتييه"** بوصف لباس المرأة القسنطينية، بل راح يفصل في أدوات الزينة التي تستعين بها المرأة القسنطينية من أجل ظهورها في أبهى حلة، حيث يقول الرحالة أن النساء اللواتي شاهدهن في الحفل كُنَّ يضعن في «آذانهن أقراطا طويلة مصنوعة بذوق همجي، وتحيط بعض منهن وجهها بثلاث سليسلات ذهبية تشبه المخانق- وهي موضة خاصة بقسنطينة- تسقط من عروتين من الأحجار الكريمة، ملتصقة بالخدين، وتحيط بالذقن دون أن تلمسه. كان هذا أحسن تعويض لي على ما لاقيته من الغيلان الفظيعة والشياطين المقيتة في سفري الذي أتيت منذ قليل على رسم خطوطه العريضة.»[5]على الرغم من إعجاب الرحالة بالنسوة معتبرا رؤيتهن أحسن تعويض على ما لقيه من متاعب في رحلته، إلا أن ما جاء في الصورة من وصف حول الذوق الهمجي لصانع الأقراط بدلا من الذوق المبدع والراقي، فإن ذلك يرتبط بطبيعة العلاقة النمطية بين

الشرق والغرب، إذ يسعى عبر خطابه غير البريء إلى تشكيل صورة الغربي المتفوق والشرقي الأدنى منه.

كما يبدي **"غي دو موبسان"** **(Guy de Maupassant)** إعجابه الشديد المرأة الجزائرية اليهودية ويتغزل بجمالها قائلا: «تحية ليهوديات هذه الأماكن: جمالهن رائع صارم فتان، يعبرن مدثرات أكثر منهن لابسات، مزينات بأقمشة لامعة، ذوق في اللبس لا مثيل له، تدرج في الألوان صنع ليجعلهن جميلات، يمشين وأيديهن عارية حتى الكتف، تماثيل تعرض للشمس بجرأة وكذلك وجوههن الهادئة بخطوطها العريقة المستقيمة، حتى أن الشمس تبدو عاجزة عن لسع هذا اللحم المصقول.»[6] إن افتتان **"موبسان"** الشديد بجمال المرأة اليهودية المتجولة في شوارع **"سيرتا"** متبرجةً مرتديةً لباسًا مختلفا عن لباس المسلمات يوحي بالتنوع العرقي والديني للمدينة التاريخية.

إن صورة المرأة الجميلة لم تتجسد في اليهوديات والإسبانيات فقط، فالجزائريات المسلمات اللواتي صادفهن **"موبسان"** في العديد من المناطق التي حل بها كُنَّ في غاية الجمال أيضا، فقد استطرد في وصفهن معتبرا المرأة العربية «قصيرة القامة، بيضاء كالحليب، سحنتها سحنة حمل صغير. لا تبدي أي حشمة إلا فيما يخص وجهها. نصادف بنات الشعب ذاهبات إلى العمل محجبات الوجوه بكل عناية، غير أن الجسد لا يغطى إلا بغطاء أمامي وآخر خلفي يظهران جانبي جسدها جليا للعيان.»[7] يبدو **"موسان"** متأثرا بجمال المرأة الجزائرية التي أبدع كثيرا في وصفها، ويبدو ذلك جليا في تشبيهه للمرأة الجزائرية بشهرزاد الليالي في فتنتها وغوايتها.

ويعزو **"غي دو موبسان"** بهجة مدينة قسنطينة إلى لطافة شعبها، وفتيات قسنطينة الصغيرات الرائعات، «المبهرجات كأنهن ذاهبات إلى حفل، يرتدين فساتين حريرية زرقاء أو حمراء، ويغطين رؤوسهن بأغطية طويلة ذهبية أو فضية، الحواجب مرسومة ومجرورة مثل قوس العيون، الأظافر مصبوغة، الخدود والجبهة أحيانا منقوشة بنجمة، النظرة جرئية ومثيرة مسبقا، منتبهات لنظرات الإعجاب، يأخذن بيد عربي جسيم خادمهن. يبدين كما لو أنهن ينتمين إلى أمة أسطورية، أمة من سيدات صغيرات ظريفات، لأن لتلك البنات الصغيرات هيئة السيدات، سيدات بزينتهن وتجميل وجوههن منتبهات لغزو القلوب. ينادين

بعيونهن مثل الكبيرات، إنهن لطيفات قلقات، مثيرات مثل الوحوش الفاتنة. يمكن القول إنها مدرسة داخلية للخليلات ذوات العشر سنوات وبذرة الحب المتفتحة.»[8]يبدي **"موبسان"** إعجابه الشديد بالمرأة القسنطينية الجميلة والمثيرة ويصرح من خلال وصفه أنها تنتمي لأمة أسطورية، ويعني بذلك انتماءها للعالم الغرائبي الساحر الذي نقلته ثقافة التراث، وتشكلت منه الصورة النمطية لطبيعة المرأة الشرقية في نظر الآخر الغربي.

بينما ينقل الأسير الألماني **"فندلين شلوصر"** **(Wendelin Schlosser)** صورة عن المرأة القبائلية التي تحب التزين هي الأخرى قائلا: «إن النساء يحرصن على نظافتهن وهن يرتدين نفس اللباس الذي ترتديه نساء العرب، إلا أنهن يرتدين زيادة على الحائك قميصا وقندورة صوفية وفي أيديهن وأرجلهن أساور وخلاخيل كبيرة في عرض اليد أحيانا. ويزين رؤوسهن بضفيرتين، مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء، تتدليان من الجانبين، ويثبتن بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين فوق الأذنين ويمتزن عن العربيات بجمال الوجه. »[9] ميز الرحالة في هذه الصورة بين تقاليد المرأة العربية والقبائلية في الجمال والزينة حيث عدّ المرأة القبائلية أكثر جمالا مقارنة بالعربية، مما يجعل من هذه الصورة تعبيرا عن رؤية ذاتية انطلاقا من خصوصية الذوق الجمالي ومعاييره لدى الرحالة، إذ تعد عناية المرأة الجزائرية بجمال مظهرها أمرا جليا بغض النظر عن انتمائها العرقي، وقد صرح بذلك قنصل أمريكا في الجزائر **"وليام شالر"** **(William.Shaler)** قائلا: «والمرأة الجزائرية تعني عناية خاصة بشعرها، وكثيرا ينزل شعر امرأة جميلة حتى يصل إلى الأرض. والمرأة الجزائرية لا تقنع بالجمال الطبيعي الذي وهبته الطبيعة لشعرها ولحواجبها، فهي تعمل على صبغهما بالأسود كما تصبغ بطلاء خاص أظافر أصابع أيديهن وكذلك يصبغن بالحناء أكفهن وأقدامهن.»[10] اهتمت المرأة الجزائرية كغيرها من النساء الشرقيات بجمالها، لذلك انبهر بها أغلب الرحالة الأوروبيين؛ لأنهم وجدوا فيها صورة المرأة الشرقية الأسطورية المترسخة في ثقافة الآخر الغربي.

لا تنفي صور الإعجاب بجمال بالمرأة الجزائرية صور القبح التي نقلها بعض الرحالة مثلما وصفته **"إيزابيل إيبرهارت"** **(Isabelle Eberhardt)** -الغائصة في أعماق الصحراء- حيث ترى الرحالة أن نساء **"بوسعادة"** لا تتمتعن بالأنوثة، فكل البنات اللواتي رأتهن فقدن

جمالهن بسبب الوشم الذي تضعنه بشكل مبالغ فيه حتى صارت وجوههن شاحبة وقاسية، كما ترى **"إيزابيل"** أن لباس نساء "**وادي سوف**" أكثر رقة وجمالا؛ ذلك أن لباس البوسعاديات يصعب ارتداؤه ولا يناسب إلا النساء الطويلات المشوقات الرشيقات، فهو مصنوع من النسيج الموصلي الذي يتخذ كجلباب يوناني مكسو بالجوخ، ومشدود بحزام منخفض جدا.[11]

إن تجسيد "**إيبرهارت**" المرأة البوسعادية في صورة سلبية بسبب الوشم الذي تعتبره سببا في شحوب وقسوة وجهها، يمكن اعتباره صورة نابعة من رؤية ذاتية إذ ما رأته في الوشم من قبح قد ينال إعجاب غيرها من الرحالة. وتجدر الإشارة إلى اختلاف تقاليد الزينة واللباس بين المرأة الجزائرية والمرأة الأوروبية؛ فقد ارتبط الوشم عند الجزائريات بالحكمة والجمال، وليس الوشم مجرد رسوم عادية، بل ذاكرة تاريخ كامل وثقافة متفردة، امتدت لقرون.

كما يقدم الجغرافي البلجيكي "**جيل لوكليرك**"(**G. Leclerc**) الصورة ذاتها عن قبح للمرأة النايلية التي شاهدها ببسكرة قائلا: «لا يوجد شيء أكثر غرابة من بدلات تلك النايلات: حين التقيناهن لأول مرة في دروب بسكرة انتابنا اندهاش يعجز اللسان عن وصفه: لا يوجد لا بالهند ولا اليابان ولا الصين شيء مماثل في اعتقادي. للرأس خصوصا تأثير بشع قطعا. شعر أسود رائع باهت الشكل إلى حد كبير، في كل جهة من الوجه عقصة ضخمة تجعل الرأس عريضا وضخما، قنات الرأس مغطاة بقطع من الحرير بألوان حادة، ومعجز يتوج كل هذه العظمة. تكمل عدة فساتين، جد واسعة مشدودة بأحزمة ومغطاة بحياك من السب، هذا اللباس المضحك الغريب؛ الأذرع والسيقان والآذان مزينة بكثير من الحلي الفضية التي كان طنينها المخشخش يعلن من بعيد عن وصول أولئك النايلات. أعناقهن محاطة بالعديد من القلادات اللؤلؤية من المرجان والجباه محجوبة تحت صفوف عديدة من السكينات، كانت الوجوه والأيدي موشومة بغرابة برسوم حناء. هذا الصنف لا يذكر بشيء بالمغربيات. يبدو أن أولاد نايل يعودون إلى عرق آخر. أغلب النساء قبيحات تماما، ولم نر صراحة فيهن جميلات حقيقيات.»[12] يبدو أن المرأة الصحراوية لم تنل إعجاب الرحالة الأوروبيين، "**فجيل لوكليرك**" ينحو منحى "**إيبرهارت**" التي تصور المرأة الصحراوية في صورة

المرأة القبيحة المبالغة في تزيين وجهها بالوشم حتى أفقدها الكثير من جمالها. أما هو فاعتبرها تنتمي لعرق آخر، ونفى عنها صفة الجمال كليا. فقد تكون صور القبح هذه نابعة من رؤية ذاتية تشكلت من خصوصية الذوق الجمالي الأوروبي، أو قد تضمر نزعة التعالي والفوقية بتمجيد المرأة الأوروبية وتفضيلها على المرأة العربية والجزائرية خصوصا.

2. صورة المرأة الجزائرية الوفية

يجسد الأسير الألماني "**سيمون بفايفر**" (Simon-Frédéric Pfeiffer) المرأة الجزائرية في صورة الوفية. حيث يستحضر إحدى القصص التي توحي بوفاء المرأة الجزائرية لزوجها وعدم تخليها عنه في أصعب الظروف، وذلك عقب حديثه عن إحدى النساء -الجميلات- التي توجه لكي يسعفها بعد إصابتها برصاصة أحد الجنود الفرنسيين، وذلك بعد أن «لحقت بزوجها من حبها له إلى أرض المعركة، وكيف أصابت زوجها رصاصة العدو القاتلة، فساعدته، زوجته، على الابتعاد عن ضجة المعركة، فأصيبت هي نفسها برصاصة في ظهرها.»[13] تنقل القصة التي سردها "**بفايفر**" صورة إيجابية عن شجاعة المرأة الجزائرية ووفائها لزوجها.

وليست نساء البغي أقل وطنية وشجاعة من النساء العفيفات المتزوجات، فقد لفت انتباهي في مذكرات "**سيمون بفايفر**" مشاركة نساء البغي في بعض المعارك التي خاضها الجزائريون ضد الفرنسيين، وفاءا لوطنهم حيث يتحدث "**بفايفر**" عنهن قائلا: «كانت أغلبهن من اللواتي كن يعشن حياة فاسقة داعرة، وقد أردن الآن التكفير عن ذنوبهن أمام الله والناس، فمضين مسرعات إلى أرض المعركة، وعلى ظهورهن قرب الماء ليطفئن غلة المسلمين المقاتلين، ويمسحن بمناديلهن عرق أجبنتهم، ويثرن فيهم الحماس إلى الاستمرار في القتال، وخوض المعركة بشجاعة وبسالة، إلا أنه كان بينهن نساء وفتيات شريفات، دفعهن حبهن لآبائهن وأزواجهن وخوفهن عليهم إلى اللحاق بهم في أرض المعركة.»[14] لا يمكن إنكار وجود ظاهرة البغاء[15] في الجزائر، فمثل هذه السلوكات السيئة موجودة في مجتمعاتنا وغيرها من المجتمعات الأخرى، غير أن ما يجعل هذه الصورة صورة إيجابية هو تركيزها على الروح الوطنية للمرأة الجزائرية ووفائها لوطنها والدفاع عنه بشجاعة من أجل الحرية

والحفاظ على انتمائها وهويتها سواء أكانت شريفة أو امرأة بغي، فالمرأة التي تخلت عن عفتها لم تتخل عن وطنيتها كما فعلت فئة من يهود الجزائر[16] !

3. صورة المرأة الخاضعة والهيمنة الذكورية

أبدى الرحالة الإنجليزي **"سيمسون هيلتون" (H.Simson)**، اهتماما بالغا بالحياة الاجتماعية للجزائريين، ما دفعه إلى البحث عن الطريقة المثلى التي تقربه منهم، فسعى إلى إقامة صداقات معهم حتى يتعرف على مختلف العادات والتقاليد والتحقيق في المعتقدات التي تؤمن بها النساء غير أنه فوجئ بغياب النساء عن الحياة العامة قائلا: «النساء يعشن عزلة تشبه السجون، فهن نادرا ما يغادرن منازلهن خاصة إذا كن جميلات، وفي ريعان شبابهن باستثناء القلة اللواتي يغادرن المنزل من أجل جلب قرب الماء أو غسل الملابس في الوديان.»[17] إن ما جاء به **"هليتون"** يمكن وصفه بالموضوعي، فالمجتمع الجزائري ظل متمسكا بمجموعة من العادات التي تمنع مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية خارج بيتها. فشأن المرأة المسلمة فيه «اختلاط الحقيقة بالخيال، واختلاط الشرع بالعادات والتقاليد: خضم من الاعتقادات الراسخة، مبنية على تصورات وخيالات اختلط فيها الحق بالباطل، اختلاطا طغى فيه على الحق. الصعوبة. تكمن في تلك الموروثات المدفونة في العقل الباطن. والتي تهيمن على تفكير الكثيرين من الرجال والنساء.»[18] لعل المهيمن حقا هو الثقافة الذكورية التي تتحكم في سلوكات وممارسات المرأة الجزائرية والشرقية بصفة عامة، فالمجتمعات الأوروبية الحديثة تحررت من البطريركية[19] فيما ظلت المجتمعات الشرقية خاضعة لثقافة الذكر التي تمارس الهيمنة والمنع والإقصاء والاختزال، مما كرس فوقية الذكر ودونية المرأة، فالثقافة الذكورية لا تبيح للمرأة ما تبيحه للرجل. لذلك اصطدم الرحالة بصورة مغايرة لما كان متوقعا، فقد تأسست الصورة النمطية المترسخة في أذهان الأوروبيين -منذ العصور الوسطى- عن ثقافة الشرق والعرب والإسلام عن كتابات الرحالة والمستشرقين « فهؤلاء الرحالة وبخاصة من دعموا رؤى عصر الإمبريالية[20]، اكتسبوا في بلادهم أبعادا أسطورية جعلت أي محاولة في الغرب لتكذيب رواياتهم عن الشرق وأهل الشرق إثما وخيانة وطنية.»[21] فشكلت تلك الكتابات صورة الشرق الغرائبي وتجسدت المرأة

في هذا العالم في صور كثيرة مضادة للقيم والنظم التي تمتثل لها المرأة في المجتمعات العربية كالفتنة والغواية والتحرر. وقد توارث الغرب هذه الأفكار جيلا بعد جيل، ولا يخفى علينا أن الاستعمار قد أسهم في تغذية الكثير من الأفكار والرؤى المشوهة للشرق.

يستمر الاثنوغرافي الإنجليزي "**هيلتون**" في سرد قصة أحد سكان المنطقة الذي قام بـ «كسر ذراع أخته لمجرد أنها اختلست النظر من الباب ونظرت إلى رجل غريب.»[22] نقل لنا الرحالة صورة واقعية تعكس خضوع المرأة الجزائرية لسلطة الذكر. وقد أشار الرحالة الألماني "فندلين شلوصر" (**Wendelin Schlosser**) إلى هذا أيضا، حين روى قصة الرجل الذي فضل أن تموت زوجته على أن يكشف عنها الطبيب، معتبرا إياه رجلا أجنبيا لا يسمح له بعلاج زوجته. فالثقافة الذكورية تفرض هيمنتها بصورة طوعية أو قسرية على الأنثى في المجتمعات الشرقية بل وتمارس القمع والاستبعاد لتكرس فوقية الذكر ودونية الأنثى. وبالتالي فالصورة التي نقلها الرحالة تعكس واقع المرأة في المجتمع الجزائري كمجتمع ذكوري السلطة فيه للذكر الذي تبيح له الثقافة والعادات والتقاليد ما لا تبيحه للأنثى.

وينقل الرحالة الإنجليزي "**هيلتون**" صورة موضوعية أخرى عن قضية الهيمنة الذكورية في المجتمع الجزائري آنذاك. وذلك باحتفاء بعض الأسر -إن لم نقل معظمها- بالمولود الذكر دون الأنثى من خلال وصفه لأجواء الفرح والسرور بازدياد مولود جديد من جنس ذكر على وجه الخصوص قائلا: «من السهولة أن تنجب المرأة دون الحاجة إلى وجود الأطباء الشاويين، يتم الاحتفال بهذه المناسبة بالكثير من الغناء، الرقص، الوليمة، وغيرها من التبجيل خاصة إذا كان المولود ذكرا، ولكن يتم تمريرها في صمت كبير من جانب الزوج إذا كانت أنثى !»[23] إن الاحتفال بالمولود الجديد الذكر دون الأنثى واحدة من العادات الشرقية الراسخة في الذهن الجمعي العربي كرستها الثقافة الذكورية، فالمجتمع العربي مجتمع ذكوري، وهذا ما يجعل من ميلاد الأنثى مناسبة للحزن وليس للفرح، ففي الجاهلية -كما هو معلوم- كانت الأنثى تدفن حية تجنبا للعار والفضيحة ! فهذه الأفكار لا تزال راسخة في بعض المجتمعات، ولكن ليس إلى حد الوأد وإنما بالتعبير عن الغضب وعدم الاعتراف بالمولودة. وقد يصل الأمر إلى تطليق الزوجة باعتبارها السبب الرئيس وراء هذه الفضيحة !

بينما يفضل الرحالة الألماني "فيلهلم شيمبر"(Wilhelm-Schimper) الخوض في تفاصيل الأسر الذي تعيشه المرأة الجزائرية التي لا تختلف -حسبه- عن السجين؛ لأنها فقدت حريتها بسبب التقاليد التي يؤمن بها سكان البلد لا بسبب غيرة زوجها عليها قائلا: «إن المرأة تعيش كالسجينة تقريبا، وليس مرد ذلك إلى غيرة زوجها، وإنما مرده إلى العادة المتبعة. فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا، بل هو في غيرته لا يختلف عن أي إنسان ينتمي إلى شعب آخر، وإن هو وجد رجلا في بيته، فإن تصرفه في هذه الحالة لن يختلف عن تصرف رجل ألماني مثلا !»[24] إن ما نقلته هذه الصورة بوصف المرأة بالسجينة أمر مبالغ فيه، فلا ننفي الحرية المحدودة للمرأة الجزائرية التي تضمر خضوع المرأة لنسق القيم المتحكم في المجتمع، وكذلك غيرة الرجل على زوجته، فهي نابعة من انتمائه الشرقي وتحكم الثقافة الشرقية في صياغة خطابه وتوجيه ممارساته. لذلك يمكن القول إن هذه الصورة واقعية بالنظر إلى عادات وتقاليد المجتمع الجزائري الذي تحكمه الثقافة الذكورية بعاداتها وتقاليدها وإن كان قد تلاشى جلها في العصر الحالي وتحررت المرأة الجزائرية نسبيا من الأعراف والقوانين السائدة.

إن الأسر الذي تعيشه المرأة الجزائرية في بيتها حسب **"شيمبر"** تحدث عنه القنصل الأمريكي **"وليام شالر"** أيضا في فترة تواجده بالجزائر قائلا: «وأما النساء، فإن وسيلة التسلية الوحيدة التي في متناولهن، هي تلك اللقاءات التي تقع في الحمام العمومي أو الزيارات المتبادلة... والإقامة في الريف لا تمثل أية فائدة بالنسبة إليهن، فيما عدا التمتع بالهواء النقي، لأن العادة تلزمهن، هناك أيضا البقاء بين جدران المنزل الأربعة، مثلما هي بالحالة في المدينة.»[25] إن الصور التي نقلها الرحالة الأوروبيون عن حرية المرأة المحدودة والتي وصفها أغلبهم بالسجينة نابعة من مقارنتها بالمرأة الأوروبية المتحررة، فالمجتمع الجزائري تحكمه جملة من الضوابط الاجتماعية والثقافية والدينية التي تفرض نمطا معينا للحياة يختلف كثيرا عن نمط الحياة في المجتمع الأوروبي الذي يبدو متفتحا كثيرا مقارنة بالمجتمع الجزائري.

لا يخرج الرحالة الإنجليزي "**ليدر**" (Simon Henry Leeder) عما أشار إليه من سبقه من الرحالة حول موضوع غياب المرأة الجزائرية –البسكرية- عن الحياة الاجتماعية

قائلا: سوف يلاحظ القراء أنه حتى هذه النقطة أننا نادرا ما نذكر نساء العرب. والحقيقة هي أنه خلال الأسابيع الأولى من إقامتنا في بسكرة لم نر أي امرأة، باستثناء بعض الراقصات من أولاد نايل،... وهذا ما خلق لدينا فضولا كبيرا بشأن طبيعة الحياة الخفية التي تعيشها نساء العرب، فقد تم تحذيرنا أيضا بأنه لا يجوز أن نسأل أي شخص عن نسائه، وهذا ما جعل معلوماتنا عن الحياة المنزلية للعرب فقيرة نوعا ما.[26] ينقل لنا هذا الخطاب صورة واقعية تعكس ثقافة الحريم المندسة في اللاوعي الجمعي للمجتمع الجزائري على غرار المجتمعات العربية الأخرى، إذ تعد المرأة من خصوصيات الزوج أو سيد العائلة ولا يجوز السؤال عنها خاصة إن كان من طرف أجنبي؛ تماما كما كانت الجواري في قصور هارون الرشيد والعثمانيين، فعالم الحريم لا يعرف خباياه إلا السلطان.

يقر الرسام الفرنسي "**ليسور**" **(Émile-Aubert Lessore)** وصديقه الإنجليزي "**ويلد**" **(William Wyld)** أنهما لم يتمكنا من رؤية المرأة المغربية والجزائرية ولم تفلح في ذلك سوى نساء الأوروبيات وهذا ينقل لنا صورة عن هيمنة الثقافة الذكورية وثقافة الحريم على المجتمع الجزائري والمغربي بصفة عامة فضلا عن بعض القيم المتعلقة بالدين والتي تمنع الاختلاط ولقاء المرأة بأجنبي عنها، فالمرأة الجزائرية «محجوبة عندما تبرز أمام الجمهور، أو أمام أجنبي. والنساء الأوروبيات وحدهن تمكن إلى الآن من رؤيتهن والحكم في شأن جمالهن. وهكذا علمنا أنه لا يوجد بين النساء المغربيات المخفية عن أعيننا وراء حجاب مكتنف بالأسرار إلا عدد قليل يتمتعن بجمال رائع. إلا أن هذا الجمال ليس مدعما بمحاسن اللياقة والآداب من ناحية الثقافة من ناحية أخرى، والأمية التي ينشأن فيها تبقي النساء في حالة هوان يرثى لها.»[27] إن ما أورده الرسامان لا يخرج عما جاء به الرحالة السابقون لكن "**ليسور**" وصديقه يؤكدان على هيمنة السلطة الذكورية في المجتمع الجزائري مما أثر سلبا على مكانتها الاجتماعية والثقافية، ففي كثير من الأحيان كانت تحرم من التعليم– آنذاك- وهذا ما دفع بالرحالة إلى وصفها بالفاقدة لقواعد الآداب والثقافة.

4. صورة المرأة الأمازيغية المتحررة

يرى الإنجليزي "**هيلتون سيمسون**" أن المرأة البربرية (الشاوية) أكثر تفتحا مقارنة مع نظيرتها العربية التي تعيش في القنطرة قائلا: «الفرق شاسع في "بني فرح" حيث تجلس

النساء في كل مكان في الشوارع، على الأسطح، بل حتى خارج منازلهن دون أن يكلفن أنفسهن عناء الاختباء فعلى الرغم من اعتناق البربر الإسلام إلا أن نساءهم يتمتعن بحرية غير معروفة عند جيرانهم العرب، حتى أننا نستطيع أن نتحدث إليهن ونشاهدهن يؤدين مختلف الأعمال اليومية على غرار صنع الفخار.»[28] إن ما أورده الرحالة حول المرأة الجزائرية يوحي بالتنوع الثقافي والإيديولوجي في المجتمع الجزائري، فحرمانها من المشاركة في الحياة الاجتماعية خارج البيت في الجنوب لم يمسها في منطقة الأوراس، فالرحالة يعتبر البربر أقل صرامة بكثير في معاملة نساءهم مقارنة بالعرب. وهذا ما يمكن وصفه بنوع من التفتح مثلما أشار الرحالة، ثم إن المرأة الأمازيغية كانت منذ القديم تشارك الرجل في كل شيء وتتمتع بحرية كبيرة، بل إنها كانت تحكم أيضا على غرار ملكة البربر"**ديهيا**"، لذلك يمكن وصف الحضور النسوي في الحياة الاجتماعية بمنطقة الأوراس بالامتداد التاريخي والثقافي للمنطقة أو نوعا من التمرد على الهيمنة الذكورية.

كما يصور البلجيكي "**جيل لوكليرك**" المرأة القبائلية في صورة المتحررة مقارنة بنساء العرب «اللواتي تبقين مخفيات لدى المغاربة، يظهرن هنا بكل حرية، وتبدين أنهن متلهفات أكثر من الرجال لأن تحظين برؤية الروميين: ولا تعبأن بأي طريقة بحجب وجوههن، وعلى عكس المغربيات، وهن شبه عاريات؛ جلابيبهن، المطابقة لجلابيب الرجال، انكفئ على الظهر وعلى الصدر وتترك الخواصر عارية حتى الحزام؛ تلففن رؤسهن بمدراس قطني، وغالبا من حرير. آذانهن مثقوبة من أعلى يثبتن بها أقراطا كبيرة. حين تحملن على رؤسهن واحدا من تلك الأواني القبائلية التي يذكر شكلها بالجرار الرومانية، تبسطن ببشاشة سواعدهن العارية رافعات مرافقهن نحو السماء. وتبدين في هذا الوضع الكلاسيكي جميلات المنظر بأعينهن السوداء الواسعة المشعة، وقوامهن الرشيق ومشيتهن السلسة.»29 إن المقارنة التي عقدها الرحالة بين المرأة العربية والأمازيغية متمثلة في القبائلية يوحي باختلاف العادات والتقاليد بين الأعراق الموجودة في الجزائر، فالبربر يظهرون في صورة المتفتح مقارنة بالبدو، يؤكد على انفتاح المجتمعات الأمازيغية مقارنة مع المجتمعات العربية، ويوحي بتحرر المرأة وخروجها عن السلطة الذكورية في مثل هذه المناطق من البلد.

5. صورة المرأة المهمشة اجتماعيا

يقدم الأسير الألماني "**فندلين شلوصر**" صورة واقعية عن المرأة المهمشة اجتماعيا من خلال الحياة البسيطة التي تحياها في الريف، إذ تقوم بالكثير من الأعمال اليومية الكثيرة والشاقة، هذه الأعمال تستدعي في نظر الرحالة مساعدة. ففي الوقت الذي ينعم فيه الزوج بالراحة تنهض النسوة مع الفجر، فتقوم «بحلب الأبقار والأغنام، ثم تأخذ واحدة في مخض الحليب، بينما تنظم أخرى الخيمة، والباقيات يسقن الماشية إلى الرعيان، وتتم تهيئة الزبدة... وهكذا تنشأ الزبدة بعد مدة قصيرة والقربة ليست نظيفة تماما، وكذلك اللبن لأن شعر الماعز يوسخها ولكن العربي لا يقرف، فهو قليل النظافة، ويأكل الزبدة أو يبيعها. وبعد ذلك تجلس امرأتان خلف المنسج، لتنسجا ألبسة للرجل ولأنفسهما وللأطفال، وينتصب المنسج... وتنسج القماش الذي تصنع منه الخيام وهناك أخريات يهيئن الفطور للرجل والأسرة كلها وبعد ذلك تهتم اثنتان بتهيئة الكسكسي وتأخذ الأخريات المطحنة ويطحن الدقيق اللازم، وفي حوالي الرابعة مساء تذهب اثنتان لجلب الحطب، الذي قلما تعثران عليه يكتفين بالبعر فيضعنه في الشمس ليصبح صالحا للاستعمال. وتهتم المرأة بتقييد الماشية وربطها وحلبها، بينما تغزل أخرى الصوف.»[30] إن صورة التهميش التي نقلها الرحالة "**شلوصر**" حول يوميات المرأة البدوية القاسية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا في المناطق الريفية التي تكون فيها المرأة بمثابة العمود الفقري للبيت مما أسس لمجتمع أميسي في كثير من المناطق الجزائرية، فهذه الأعمال الشاقة تقوم بها المرأة البدوية دون تذمر وهذا لا ينقص من قيمتها شيء بقدر ما يزيد منها، فالمتأمل في هذه الأعمال الكثيرة التي تتم بطرق بدائية يدرك حتما حجم قوة وصبر نساء البدو على الظروف الصعبة التي تتسم بها حياتهن.

بينما يختم الرحالة الإنجليزي "**هيلتون**" زيارته إلى القنطرة بحديثه عن أبرز العادات والتقاليد وكذا يوميات نساء العرب من نسيج وغزل للصوف وكيفية التداوي من لسعات العقارب، والأدوية الشعبية التي توصف لمختلف الأمراض خاصة وأن الرحالة قد جاء في بعثة علمية وكان يسعى جاهدا إلى التعرف على كل تفاصيل المناطق التي يزورها.[31]

كما ينقل لنا "**موبسان**" صور عن تهميش المرأة الجزائرية وهي تكابد مشاق الحياة والأعمال اليومية التي أخذت الكثير من جمالها وشبابها، فالفتيات اللواتي شاهدهن في المدن الجنوبية كُنَّ «في الخامسة عشرة، بائسات، من شأنهن أن يكن جميلات، لقد انهارت أجسادهن وتعبن بسبب المهام الشاقة. إنهن يكافحن من الصباح إلى المساء كل الصعاب،

تبحثن عن الماء عدة كيلومترات وهن يحملن أطفالا على ظهورهن. لقد أصبحن في سن الخامسة والعشرين بسبب التعب. قد يرى المرء في وجوههن أحياننا وشما على شكل نجمة زرقاء في الجبين والخدين والذقن. والجسم تم حلقه وفق مقاييس النظافة إنه من النادر جدا أن ترى نساء الأغنياء العرب.»[32] يبدو أن المعاناة التي حلت بالجزائريين لم تستثن أحدًا، فحتى الفتيات الصغيرات كن تكافحن من أجل العيش، فالظروف كانت صعبة للغاية، فكيف تحافظ الفتاة على جمالها وأنوثتها وهي تصطدم بالتهميش والفقر وتقطع مسافات طويلة بحثا عن الماء؟ يتساءل **"موبسان"** ثم إن المعاناة قد زادت من أعمارهن وهذا ما منعهن من الاستمتاع بطفولتهن كغيرهن من الإناث في العالم. ومع ذلك يمكن وصف المرأة الجزائرية بالمكافحة المتحدية للفقر والحرمان والاستعمار في آن واحد.

خاتمة

قدمت نصوص الرحلة -نماذج الدراسة- صورة المرأة الجزائرية في جمالها وقبحها ووفائها وفي خضوعها للثقافة الذكورية السائدة في المجتمع الجزائري أو تحررها منها، كل تلك الصور كانت صورا واقعية إلى أبعد حد، حيث مثلت الرحلات المرأة الجزائرية في صورة الجميلة الفاتنة بجمالها ولباسها الشرقي المتميز. كما صور الرحالة الأوروبيون المرأة الجزائرية في صورة السجين واستغربوا من غيابها عن الحياة الاجتماعية بسبب الأعراف السائدة، في مقابل ذلك صورت رحلات أوروبية أخرى المرأة الأمازيغية على أنها أكثر تحررا من المرأة العربية. ومن بين الصور الإيجابية تلك التي جسدت المرأة الجزائرية في صورة المرأة الوفية لزوجها ووطنها بمشاركتها في معارك عدة. وقد سمح احتكاك الرحالة المباشر مع الجزائريين ومعايشتهم ليومياتهم بالكشف عن مدى هامشية المرأة انطلاقا من قيامها بمختلف الأعمال الشاقة. لكن هذا لا يلغي تحكم بعض المرجعيات الثقافية في تصوير المرأة الجزائرية؛ كتلك الصور النمطية التي رسختها الثقافة في أذهان الرحالة عن المرأة الجزائرية والشرقية بصفة عامة، فضلا عن نظرة الرحالة الأوروبي إلى المرأة الجزائرية وفق رؤية مقارنة بينها وبين المرأة الأوروبية متناسيا الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع، فكثيرا ما

كانت تلك الصور تضمر السخرية من واقع المرأة الجزائرية بسبب تبني الرحالة لنزعة التعالي والفوقية التي تميز الأوروبي.

الهوامش:

1. **الآخر:** مفهوم يمكن تقصي أصوله في أعمال هيجل، ويوجد في مختلف الاتجاهات الفكرية التي تعالج نظرية المعرفة، وفي مسائل الهوية الثقافية وفي التحليل النفسي... يمكن وصف مصطلح "الآخر" بأنه يمثل شكلا من أشكال التصور الثقافي للأفكار والمفاهيم. إذ يمثل هذا التصور أساس بلورة هويات الذوات الثقافية من خلال علاقات القوة السياسية... للتوسع أكثر ينظر: أندرو إدجار وبيتر سيدجويك. موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات. تر: هناء الجوهرى، مراجعة وتقديم وتعليق: محمد الجوهرى، المركز القومي للترجمة، ط2، 2014، ص: 47
2. محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن. دار العودة، بيروت، ط3، 1983، ص: 420
3. محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن. دار العودة ، بيروت، ط9، 1987 ص: 346
4. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013، ص:20
5. المرجع نفسه. ص: 20
6. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر" إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، دار ورد للطباعة والنشر، ط1، 2007، ص: 99
7. المرجع نفسه، ص: 87
8. المرجع نفسه، ص: 99
9. فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837، تر: أبو العيد دودو، وزارة الثقافة الجزائرية،2007، ص: 100
10. وليام شالر. مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر(1816-1824). تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1982، ص:85
11. ينظر إيزابيل إيبرهارت، الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال، تر: عبد السلام المودني، ص: 514، 135
12. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، ص: 221
13. سيمون بفايفر. مذكرات أولمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص: 94
14. المرجع نفسه، ص: 131
15. لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة وهي تشريع السلطات العثمانية بفتح دور للبغاء يشرف عليها المزوار هذا الشخص الذي يسمح له باستقدام بغايا من كل مكان والتوجه بهن إلى أي مكان من أجل إحياء حفل أو ما شابه ذلك على أن يدفع مقابل نشاطه ضرائب للسلطات العثمانية، وهذا ما يسهم في تهديم قيم المجتمع، كما تجدر الإشارة إلى أن فرنسا سمحت باستمرار دور البغي في العمل بعد بسط نفوذها على الجزائر. ينظر: عبد الحميد الأركش. «البغاء: قطاع هامشي، منظم ومُقنن مؤسَّسة "مزوار"». تر: محمد أسليم، موقع: أسليم نت: http://aslimnet.free.fr/، 2020.12,26، 19:18سا.

16. أشارت الكثير من كتب التاريخ والرحلات إلى فرحة الكثير من اليهود بالاحتلال الفرنسي، حيث خرج يهود العاصمة ورددوا "فيفا لا فرنسيس" وأهانوا المسلمين، وهذا ما أثبته "**شلوصر**" في رحلته.

17 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawía of the Aurès Mountains. T. Fisher Unwin ltd, London,1921. Pp29

18. محمد خليفة جميل. المرأة المسلمة وأوهام الرجال السلطوية والجنسية. أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2014، ص: 24

19. **البطريركية (Patriarchy):** نظام أبوي، وهو تنظيم اجتماعي يتميز بسيادة الأب أو الذكر الأكبر في العشيرة أو الأسرة والتبعية القانونية للزوجات والأبناء؛ يرتكز هذا النظام في الغالب على العادات والتقاليد ويكون للرجال فيه السلطة على النساء. **عن ويكيبيديا**.

20. **الامبريالية الثقافية:** تتضمن الامبريالية الثقافية هيمنة ثقافة على أخرى، وعادة ما يتم التفكير فيها على أنها مجموعة من العمليات التي تنطوي على سيطرة دولة واحدة، أو على أنها الهيمنة العالمية للرأسمالية الاستهلاكية، وتؤكد هذه الحجة على فقدان الاستقلالية الثقافية للأمة المهيمن عليها... للتوسع ينظر: **كريس باركر. معجم الدراسات الثقافية. تر: جمال بلقاسم، ، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2018، ص: 79**

21. رنا قباني. أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد. تر: صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط2، 1993، ص: 11

22 .M.W.Hilton-Simson .Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawía of the Aurès Mountains .Pp: 34

23. المرجع نفسه، ص: 220

24. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1855.1830). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص: 13

25. وليام شالر. مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر(1816-1824). تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1982، ص: 88، 89

26 .S. H. Leeder. The Desert gateway, Biskra and thereabouts. CASSELL AND COMPANY, LTD. London, New York, Toronto and Melbourne 1910. Pp: 67

27. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، شركة دار الأمة، الجزائر، 2001، اللوحة: 25

28 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawía of the Aurès Mountains .Pp:40

29. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2016، ص: 178

30. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 93

31 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawía of the Aurès Mountains. Pp: 38

32 .Guy de Maupassant. au soleil 1884. Edition repoduite, Albin Michel, 1925. Pp:100